طرائف:

عن الكتب والكتاب

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

نسخ الكتب . تصحيح الكتب . سرقة الكتب . النار والمكتبات

موضوع المكتبة العربية — عامة أو خاصة — هو موضوع طريف سنعرض له بالتفصيل فى العدد القادم من « الرسالة »

أما موضوع اليوم فهو توطئة للموضوع الذى اعتزمنا الكتابة فيه للأعداد المقبلة

ومن لوازم الكتب وجود عدد من « النساخين » ومهمتهم أن ينسخوا من الكتاب الواحد نسخة أو أكثر على حسب رغبة المؤلف أو وفق مقتضيات الأمور

وأول ما عرف من هؤلاء النساخين فى الأدب العربى الجماعة الذين كتبوا المصاحف الأربعة بأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؛ وهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث[1]

أما كتّاب الوحى فلم يكونوا نساخاً ، بل كان الرسول يملى عليهم الآيات حين نزولها ، وشرط النسخ أن يكون عن كتاب أو صحيفة مكتوبة

وليس النسّاخون مقصورين على الكتاب العربى وحده أو المكتبة العربية وحدها ، فهناك نساخون فى الكتب الأوربية وكان يطلق على هؤلاء النسّاخ كلمة الرهبان ، لأن الرهبان والقسوس كانوا مختصين فى العصور الوسطى بنسخ الكتب[2]

وبهذه المناسبة كان عند النساخين من الرهبان قانون وضعه « تريتم » رئيس الكهنة فى عصره يقول فيه : « يجب أن يقطع أحدكم الرق قطعاً ، وآخر يصقلها ، وآخر يسطرها ، وآخر يبرى الأقلام يملأ المحابر ، وآخر يقرأ ويصحح كتابة الناسخ ، وآخر يزخرف الكتابة بالمداد الأحمر وينقط الحروف ، وآخر ينقشها ، وآخر يلصق الورق ويحبك الكتب على ألواح من الخشب »[3]

فأنت ترى من ذلك كله أن عملية نسخ الكتاب كانت عملاً منظماً توضع له القوانين وتقعّد القواعد . وخاصة عند جامعى الكتب من أمراء أوربا فى العصور الوسطى

ولهؤلاء النساخين — عرباً كانوا أو فرنجة — طرائف فى النسخ . ولكنهم على كل حال كانوا آفة فى الكتابة العربية : ونظرة واحدة فى الشعر الوارد فى كتاب « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبى تؤيد هذا الكلام ، فهو شعر مختل مكسور مسخه الناسخ . وجاء الطابع الحديث فأبقاه — لسقم ذوقه — على اختلاله وكسره . وجاء الدكتور العالم أحمد عيسى بك فنقله فى كتابه الجديد « معجم الأطباء » مختلاً مكسوراً . وليس ذلك من سبيل بحثنا اليوم ، ولكننا سنفرد لتصحيح هذا المعجم الجليل مقالاً طويلاً فى « الرسالة »

ومن عجب أن الكتب المنسوخة لم يقم لها مصححون يعنون بمراجعة أخطاء النّسخ وضبط الكتاب وتحقيقه ؛ أما الكتب المطبوعة فقد قام عليها مصححون منذ عرف الكتاب العربى الطبعة العربية فى مطلع القرن التاسع عشر ؛ وعند صديقنا العالم الراوية الأستاذ محمود حسن زناتى أنباء كثيرة وطرائف عن هؤلاء المصححين ؛ ولعله يتحف الأدباء قريباً بمقالاته فى هذا الموضوع . وأشهر هؤلاء المصححين التماعاً فى سماء الأدب الشيخ نصر الهورينى المتوفى سنة ١٨٧٤م ، كان هذا الشيخ عضواً فى بعثة أرسلتها الحكومة المصرية إلى فرنسا[1] ؛ فلبث هناك مدة ثم عاد رئيساً للتصحيح بالمطبعة الأميرية ؛ وله تعليقات لطيفة على هامش القاموس المحيط للفيروزبادى ؛ كما أن له كثيراً من المؤلفات أشهرها « المطالع النصرية للمطابع المصرية »

ومن المصححين المشهورين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الشيخ أحمد المهى بن حسن عبد الصمد[2] ؛ وكان موظفاً بالمطبعة الوهبية التى أنشأها الفاضل مصطفى وهبى . وللشيخ المهى فضل تصحيح كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة ؛ وهو من المطبوعات النادرة الآن . وقد تم طبعه فى سنة ١٨٨٢م ؛ ولم يطبع بعد تلك الطبعة إلى اليوم

ولم يكن عمل المصححين القيام على تصحيح الكتب المطبوعة فحسب ؛ بل قام بعضهم بتنظيم الفهارس المختلفة للكتاب المطبوع كما صنع الشيخ البهى فى كتاب طبقات الأطباء المذكور . فقد صنع فهرساً وافياً للأعلام ، وآخر للبلاد والمواضع والأماكن

(١) آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ص ١٨٧ ج ١
(٢) مجلة روضة المدارس المصرية من مقال لعلى رفاعة الطهطاوى
(٣) المصدر السابق

(١) الأعلام للزركلى ج ٣ ص ١١٠٣
(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء صفحة ٢٧٤ ج ٢

والمياه والأنهار[١] . وبلغت صفحات هذين الفهرسين وحدها (١٢١ صفحة)

وليس عمل الفهارس للكتب المطبوعة القديمة أو الحديثة عملاً هيناً يسيراً ، ولكنه يقتضي دقة وبصراً من واضعه ؛ واشتهر من منظمي الفهارس اليوم الأستاذ محمد شوقي أمين الموظف بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ؛ فله فهرس[٢] منظم لكتاب البخلاء للجاحظ الذي طبعته وزارة المعارف العمومية بعناية الأستاذين أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك ، وله فهرس لكتاب الحلل السندسية في الآثار الأندلسية الذي يطبعه الأمير شكيب أرسلان

وللكتب ـ مطبوعة كانت أو مخطوطة ـ آفتان : السرقة والنيران . ولقد عرف اللصوص قيمة الكتب وخاصة بعد أن اعتنى أصحابها بتجليدها وتزيينها ؛ فارتفعت أثمانها عند الأمراء والأثرياء واضطر هؤلاء إلى العناية بحفظها والقيام عليها وكانوا يكتبون على أولها عبارات تتضمن لعنة السارق والسخط عليه . وقد وجد على أحد الكتب هذا البيت من الشعر على لسان صاحب الكتاب :

إذا غرك الشيطان أن تجترى على ... كتابي فعقبي المجترين الفضائح

أما النيران فهي آفة الكتاب الكبرى وبليته . فلقد أحرقت مكتبة الأمير نصر السامانى على نفاستها[٣] . واتهم بعض ذوي الأغراض عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الأسكندرية وهي تهمة لا تستند إلى الحق . وأحرق التتار مكتبة بغداد وأغرقوا كثيراً منها في النهر سنة ٦٥٦هـ[٤] ، وكانت الكتب النفيسة في هذه الفتنة تباع بأوهى قيمة[٥]

ولما سقطت مدينة غرناطة في يد الأسبان أمر البطريق إيكزامينيس بإلقاء الكتب الإسلامية وخاصة العربية في النار . ونهب الأتراك في القرن العاشر ما وقع لهم من كتب المماليك وأضرموا النار فيها . ولا يغرب عن البال ما صنعه د كرمويل » في مكتبة اكسفورد فقد أمر بإحراقها وكانت أغنى المكتبات الأوربية في حينها

وهناك بلية ثالثة للكتب وهي العُثَّة التي تعيث فيها وتطيل ملازمتها لها بالأخراق والثقب ؛ واسمها بالإنجليزية : Moth Worm . وقد أطلق الإنجليز على كل شخص يطيل ملازمة الكتب والتنقير فيها كلمة Book-Worm ، وهي كلمة يفتخر العلماء وأهل البحث بأنها من صفاتهم .

محمد عبد الغني حسن

(١) ذيل طبقات الأطباء
(٢) كتاب البخلاء ج ٢ ص ٢٣١
(٣) مجلة روضة المدارس
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢٠٢
(٥) التجارب الدقة لابن القوطي طبع بغداد

صفحة ٣٣١